

رؤية عبد الرزاق قسوم حول تأثير المنهج الرشدي في صياغة الفكر الغربي الوسيط

كيف استطاع فيلسوف أندلسي مسلم من القرن الثاني عشر أن يترك بصمة عميقة على الفكر الأوروبي الوسيط؟ هذا ما يتناوله عبد الرزاق قسوم في مقاله حول تأثير المنهج الرشدي على الفلسفة الغربية في العصور الوسطى، وهو تأثير تجاوز الحدود الجغرافية والثقافية، ليعيد تشكيل الفكر المدرسي واللاهوتي الأوروبي.

لقد مثل ابن رشد جسرًا بين الحضارات، بفضل منهجه العقلاني الذي وُجد بين الفلسفة والدين، وأثرى الفكر الغربي بأدوات تحليلية جديدة، ساهمت في بروز التيارات الرشدية اللاتينية وصياغة مناهج التعليم الجامعي في أوروبا. فما هي أبعاد هذا التأثير؟ وكيف انعكست أفكاره على النهضة الفكرية الغربية؟

يستعرض هذا التحليل فحوى دراسة “تأثير المنهج الرشدي في صياغة الفكر الغربي الوسيط” للدكتور عبد الرزاق قسوم والمنشور في مجلة آفاق الثقافة والتراث (العدد 39، أكتوبر 2002). ويركز على الأفكار الرئيسة التي ناقشها الكاتب، وأبرز التأثيرات التي أشار إليها حول أثر **منهج ابن رشد** (المنهج الرشدي) على الفكر الأوروبي خلال العصور الوسطى، ودعوته إلى إعادة تقييم دور الفلاسفة المسلمين في صياغة الفكر الإنساني. كما يقدم تحليلًا موجزًا لمنهجية الكاتب واستنتاجاته في ختام المقالة، هذه دعوة لاكتشاف إسهاماته في رسم ملامح الفلسفة الغربية كما نعرفها اليوم.

الأفكار الرئيسة

يتناول عبد الرزاق قسوم في هذه المقالة دور أبي الوليد ابن رشد (1126-1198م) ومنهجه الفلسفي العقلي في تشكيل ملامح الفكر الأوروبي في القرون الوسطى. يمكن تلخيص أبرز محاور وأفكار المقالة كما يلي:

- **ماهية المنهج الرشدي وخصائصه:** يبدأ الكاتب بتعريف **منهج ابن رشد** العقلي والفلسفي. يوضح أن ابن رشد تبني منهجًا يقوم على العقلانية الصارمة والاعتماد على البرهان المنطقي المستند إلى فلسفة أرسطو. تميّز منهجه بالبساطة والوضوح والمنطقية، والسعي إلى التوفيق بين الدين والفلسفة على أسس عقلية. وقد أكد ابن رشد في كتاباته (مثل فصل المقال وتهافت التهافت) على إمكانية انسجام الحقيقة الدينية مع الحقيقة الفلسفية عبر منهج عقلي متين. هذه السمات جعلت “المنهج الرشدي” صالحًا للتطبيق في سياقات حضارية مختلفة، وهو ما مهد لاستقباله في البيئة الغربية.



- **انتقال الفكر الرشدي إلى الغرب اللاتيني:** ينتقل الكاتب لشرح الكيفية التي عبر بها فكر ابن رشد ومنهجه إلى أوروبا خلال القرون الوسطى. يشير إلى حركة الترجمة النشطة في القرن الثالث عشر الميلادي، حيث تُرجمت مؤلفات ابن رشد وشروحه لأرسطو من العربية إلى اللاتينية والعبرية في مراكز علمية كالأندلس وصقلية. هذه الترجمات أوصلت “الفلسفة الرشدية” إلى جامعات أوروبا، وخاصة في باريس وإيطاليا. يبيّن قسوم أن الأوروبيين في تلك الفترة أطلقوا على ابن رشد لقب “الشارح الأكبر” (Commentator) لأرسطو، مما يدل على مكانته المحورية في نقل المعرفة الفلسفية. وقد أصبحت شروح ابن رشد المصدر الأساسي لفهم فلسفة أرسطو في الغرب الوسيط.
- **ملامح التأثير في الفكر الغربي الوسيط:** تناقش المقالة بالتفصيل أثر منهج ابن رشد على الفلسفة المدرسية المسيحية في العصور الوسطى. من الأفكار الرئيسة التي يذكرها الكاتب:
- إدخال أسلوب التحليل العقلي الدقيق إلى مناهج التعليم الأوروبي في القرون 12-13م. حيث اعتمد فلاسفة ومدرسو الجامعات على المنطق الأرسطي المشرح برشدياً في مناقشة القضايا الفلسفية واللاهوتية.
- تشجيع نزعة الفحص النقدي وطرح الأسئلة الجريئة في مسائل العقيدة والفلسفة. يذكر الكاتب أن منهج ابن رشد العقلي دفع بعض المفكرين الأوروبيين (المعروفين بالرشديين اللاتينيين) إلى مناقشة قضايا حساسة كقدم العالم ووحدة العقل استناداً إلى آراء ابن رشد، مما أثار جدالات واسعة في الأوساط اللاهوتية حينها.
- يبرز الكاتب تأثير ابن رشد على أعلام الفكر الأوروبي الوسيط؛ فقد تأثر توما الأكويني (1225-1274م) بأرسطية ابن رشد وإن عارضه في بعض النقاط، لكن حضور ابن رشد أرغم علماء اللاهوت على تنظيم منهجية جديدة توازن بين الإيمان والعقل. كذلك تبني سيجر البرينتي وفلاسفة جامعة باريس أفكاراً مستمدة من ابن رشد، مثل نظرية العقل الفعّال الواحد للبشر، مما أدى إلى ظهور تيار عرف في التاريخ باسم “الرشدية اللاتينية”.
- يشير قسوم إلى أن الجدل بين “الرشديين” والكنيسة كان إحدى ثمرات تأثير ابن رشد. فقد أدت الجرأة العقلية التي بثّها منهجه إلى إصدار السلطات الكنسية إدانات لبعض الآراء الفلسفية سنة 1277م (والتي استهدفت ضمناً أفكاراً منسوبة لابن رشد وأتباعه). هذا الجدل دفع الفكر الغربي نحو مزيد من التعمق الفلسفي لمحاولة التوفيق بين العقل والإيمان أو تحديد نطاق كل منهما.



- ابن رشد كجسر حضاري: فكرة محورية أخرى في المقال هي أن ابن رشد مثّل حلقة وصل أساسية بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية. يشرح الكاتب كيف أن الغرب الوسيط أفاد من الإرث العلمي والفلسفي الإسلامي من خلال منهج ابن رشد أكثر مما استفاد العالم الإسلامي نفسه في تلك الحقبة. وبعبارة أخرى، كان لفكر ابن رشد مصيرٌ أوفر حظًا في أوروبا، إذ أصبح محرّكًا لنشاط فكري هناك، في حين تراجع الاهتمام به في المشرق الإسلامي بعد وفاته (بسبب هيمنة التيارات اللاهوتية المناهضة للفلسفة آنذاك). ويرى قسوم أن هذا المثال التاريخي يعكس عالمية المنهج الرشدي وقدرته على تخطّي الحدود الثقافية.

تأثيرات المنهج الرشدي في الفكر الغربي الوسيط

استخلص عبد الرزاق قسوم في مقالته عدة تأثيرات جوهرية لمنهج ابن رشد العقلي على مسار الفكر الأوروبي في العصور الوسطى، من أهمها:

- ترسيخ منهج العقلانية الأرسطية في أوروبا: أدّى انتشار شروح ابن رشد إلى ترسيخ الفلسفة الأرسطية القائمة على المنطق والاستدلال في مناهج التفكير الأوروبي. هذا جعل العقلانية جزءًا أساسيًا من الفكر المدرسي Scholasticism في جامعات العصور الوسطى.

- إعادة صياغة العلاقة بين العقل والإيمان: بفضل النموذج الرشدي، أعيد طرح السؤال حول حدود كل من العقل والدين. اضطر علماء اللاهوت المسيحي إلى مواجهة الأطروحات الفلسفية على أرضية العقل. وكانت النتيجة ظهور محاولات للتوفيق بين الفلسفة المسيحية والطرح الرشدي أو للرد العقلاني عليه، مما طوّر الفكر اللاهوتي نفسه ودفعه نحو مزيد من التنظيم المنطقي (كما فعل توما الأكويني في الخلاصة اللاهوتية عند مناقشته آراء ابن رشد).

- ظهور حركة “الرشديين اللاتينيين” وتأثيرها: تبثّى بعض الفلاسفة الأوروبيين أفكار ابن رشد بحماسة شديدة واعتبروها حقائق فلسفية عليا. هؤلاء عُرفوا بالرشديين، وقد حرّكوا المياه الراكدة في الفلسفة الأوروبية. فطرحوا مثلاً فكرة وحدة العقل (أن لكل البشر عقلاً فعالاً واحداً مشتركاً، استناداً إلى تفسيرهم لابن رشد)، وفكرة قدم المادة والزمن، وغيرها. ورغم تعرض هذه الأفكار للرفض الرسمي من الكنيسة، إلا أنها انتشرت أكاديميًا وتركت أثرًا دائمًا في تاريخ الفكر الأوروبي.



- إرساء الأسس لعصر النهضة الأوروبي: يشير الكاتب ضمناً إلى أن الحركة الفكرية التي أطلقها تأثير ابن رشد ساهمت (على المدى البعيد) في تهئية أوروبا لعصر النهضة. إذ أن إيقاظ روح البحث العقلي الحر ونقل تراث الفلسفة اليونانية عبر ابن رشد شكّل أحد العوامل التي نهض بها العقل الأوروبي من قيود العصور الوسطى نحو آفاق أكثر انفتاحاً في بدايات العصر الحديث. باختصار، يرى قسوم أن أوروبا في العصور الوسطى صاغت الكثير من مفاهيمها الفلسفية على وقع المنهج الرشدي حتى لو كان ذلك أحياناً عبر سجال ومعارضة، فإن مجرد وجود هذا السجال العقلي كان مؤشراً على عمق تأثير ابن رشد هناك.

منهجية عبد الرزاق قسوم واستنتاجاته

اعتمد عبد الرزاق قسوم في مقالته منهجية بحث تاريخية تحليلية. فقد قام باستقراء المصادر التاريخية والفلسفية من حقبة القرون الوسطى، سواء مؤلفات ابن رشد نفسها أو كتابات المفكرين الأوروبيين الذين تأثروا به. تظهر منهجيته في عرضه المنظم للأحداث والأفكار: حيث انتقل من الواقع الفكري الإسلامي عند ابن رشد، إلى تتبع مسار انتقال الأفكار، ثم تحليل الكيفية التي تفاعل بها الفكر الأوروبي معها. اعتمد الكاتب أسلوب المقارنة الضمنية بين البيئة الفكرية الإسلامية ونظيرتها الأوروبية، لإبراز نقاط التلاقي والاختلاف في استقبال نفس المنهج العقلي.

من جهة الاستنتاجات، يخلص الكاتب إلى جملة من النتائج المهمة حول عالمية منهج ابن رشد وأثره العميق. أولاً، يؤكد صلاحية المنهج الرشدي للتطبيق داخل الحضارة الإسلامية وخارجها على حد سواء، وذلك لما يتسم به هذا المنهج من وضوح وبساطة وقدرة على الإقناع العقلي.

هذه الخصائص جعلت فكر ابن رشد لغةً عقلانية مشتركة استطاع المثقف الأوروبي فهمها والتفاعل معها رغم اختلاف الدين والثقافة. ثانياً، يستنتج الكاتب أن الفكر الأوروبي مدينٌ بشكل ملموس لابن رشد، إذ لولا شروحه ومنهجه لربما تأخر إدماج الفلسفة العقلانية في أوروبا. ويوضح أن هذا التأثير لم يكن سطحيًا أو عابراً، بل أصاب لبّ المناهج الفكرية الأوروبية وساهم في إعادة تشكيل الرؤية الأوروبية تجاه الفلسفة والعلم. ثالثاً، يشير قسوم إلى مفارقة تاريخية وهي أنه بينما أثمرت العقلانية الرشدية في أوروبا ثورة فكرية، فإن العالم الإسلامي لم يستفد منها بالقدر نفسه في ذلك الزمن، ربما لاعتبارات اجتماعية وسياسية ودينية خاصة به. وهذا يدعو - ضمناً - القارئ المعاصر إلى التأمل في أهمية الانفتاح الثقافي وتبادل التراث بين الأمم.

الدكتور عبد الرزاق قسوم : سيرة موجزة



ولد الدكتور عبد الرزاق قسوم عام 1933 في مدينة المغير بولاية الوادي بالجزائر، وسط أسرة محافظة اهتمت بتحفيظه القرآن الكريم وتلقيه اللغة العربية في المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء المسلمين، إلى جانب تعليمه في المدرسة الفرنسية. تلقى تعليمه الثانوي في معهد ابن باديس بقسنطينة (1949-1953)، الذي شكل منعطفاً في تكوينه الفكري والوطني.

انخرط في الثورة التحريرية (1954-1962) منذ بدايتها، وعمل في التعليم العربي الحر بينما كان يُشارك في الأنشطة النضالية. بعد الاستقلال التحق بجامعة الجزائر وحصل على ثلاث شهادات ليسانس: في الأدب العربي (1966)، والترجمة (1967)، والفلسفة (1969). واصل دراساته العليا فنال دبلوم الدراسات العليا (1971)، ثم ماجستير في الفلسفة من جامعة القاهرة (1975)، ودكتوراه دولة من السوربون بباريس (1979). تخصص في الفلسفة الإسلامية والفكر العربي المعاصر، وأصبح أستاذاً بارزاً في جامعة الجزائر، وشارك في إدارة معاهدها العلمية كمدير لمعهد الفلسفة (1986-1988) والمعهد الوطني لأصول الدين (1988-1994).

تولى الدكتور عبد الرزاق قسوم رئاسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (2011-2023 م) كما كان أميناً عاماً للمجلس الإسلامي الأعلى (1980-1986 م) بالإضافة إلى ذلك الدكتور قسوم عضو في عدد من الهيئات العلمية والإسلامية. للدكتور قسوم إنتاج زاخر من الاسهامات الثقافية والعلمية، فقد ألّف عديد الكتب مثل “عبد الرحمن الثعالبي والتصوف”، و”مفهوم الزمن عند ابن رشد”، و”فلسفة التاريخ: قراءة إسلامية معاصرة”، إلى جانب كتابة المقالات في صحف ك”البصائر” و”الآداب” اللبنانية. كما ترجم أعمالاً فكرية إلى الفرنسية والعربية.

خاتمة

في المجمل، استنتج عبد الرزاق قسوم أن منهج ابن رشد العقلي كان أحد العوامل المحورية في نهضة الفكر الأوروبي الوسيط وتشكيل معالمه، وأن التلاقح الحضاري الذي مثله انتقال هذا المنهج من الشرق الإسلامي إلى الغرب المسيحي غيّر مسار التاريخ الفكري لكلا الجانبين. لقد قدّم الكاتب رؤيته مدعومة بالأمثلة التاريخية والتحليل المنطقي، مما يجعل خلاصة مقاله دعوة لإنصاف الإرث الفلسفي الإسلامي والإقرار بدوره الإيجابي في تطور الفكر الإنساني العالمي.